أيضا، أكذِّبها. تمسك بيدي تضعها على بطنها، تقول: «ها هو يتحرك، ألا تشعر به؟!» أصيح: «نفتح الصندوق ونشوف!» تضحك أمي على استخدامي لكلمة الصندوق.

في حملها التالي أصبح صاحب معرفة، أطْلِع أختي على ما لدي من أسرار الصندوق. لم يخل الأمر أبدا، في حالة أمي والعمات والخالات، من حب استطلاع من جانبي، وإحساس بالمغامرة، ورغبة مثيرة في متابعة هذه اللعبة الأشبه بتعقبنا لولد أو بنت من رفاقنا في اللعب مختف في الحجرة المظلمة.

في حملها الأخير اختلف الأمر. ولد كبير في التاسعة، يرعى أختيه الصغريين، ويعي أن المثير في الحمل والولادة يمتزج بقلق لا يخل من خوف، ورجاء معلق بين الصرخة المختنقة وصرخة أخرى تعقبها كلمات التهنئة ـ أمي تلد في البيت على يد قابلة. تحدد لي الأصوات ووجه أبي وجدتي مسار هذه المشاعر، أعرفها ولا أحيط بها.

أقف خارج الغرفة مع أبي، ينفتح الباب، أسمع كلمة: تفضلوا. أمي ترقد في السرير، جدتي متربعة على مقعد كبير، الصغير بين يديها لا يبد منه سوى رأس مدور، وعينين مغلقتين، وشعر أسود مبتل، ويدين أصغر من يدي دمية أختي. تقول جدتي: يشبهك! أتطلع إليه. أمد يدي. أحمله. أحمله قبل أن يحمله أبي.

حملتُ أخي الأصغر كأنني أبوه، حملته بحرص، ربما كنت فرحا بكونه ولدا مثلي، ربما أحببت شكله، أو أحببت نفسي وأنا أحمله بين ذراعيّ، صغيرا وهشا ويحتاج حمايتي.

تمتم الناظر: «الحجرة المظلمة، لعبة للكبار، الشروط أصعب، ونتيجة الفوز أجنحة أو أوتاد، نهاية لعبة صغيرة: بداية اللعبة الأخري». صاح: «اذهب يا أبا العلاء، لا أريدك معي. لن أكتب هذا الكلام!»